

الفخار مصدر مهم للبحث في أصل الحيتيين وهجراتهم

دكتور محمود عمر محمد سليم

عميد المعهد العالي لحضارات الشرق الأدنى القديم السابق

أستاذ الآثار والحضارة المصرية القديمة

بقسم الحضارة المصرية القديمة بالمعهد، جامعة الزقازيق

١- أصول الحيتيين على ضوء المصادر المدونة:

اهتم العلماء بالبحث في مصادر الحيتيين القديمة ومنها اللغات التي عاصرتهم للتعرف على أصولهم وهجراتهم بعد أن تعذر عليهم العثور على دلائل أخرى، وعقد الأمل على ما عثر عليه في الأناضول من نصوص مسمارية شملت لغات عديدة منها ما أطلق العلماء عليه "لغة ما قبل الحيتية"، واعتاد علماء الآثار وتاريخ غرب آسيا القديم أن يطلقوا على القبائل التي كانت تقطن أواسط آسيا الصغرى خلال عصور ما قبل التاريخ اسم ما قبل الحيتيين، وهم يشكلون السكان الأوائل وكانوا من أصل هندوأوروبي، ويقولون أيضا أن هذه القبائل لا تمت بصلة قربي إلى الحيتيين، الذين شكلوا بعد قرون عديدة جزءا من هجرة ما تعرف بالشعوب والقبائل الهندوأرية^(١). واعتقدوا أن القبائل الحيتية استوطنت بعض مناطق آسيا الصغرى في نهاية الألف الثالث قبل الميلاد. وكانت تربطها صلات قربي قوية بقبائل الكتنوم التي كانت تقطن البلقان. وهذا يدل على أنهم نزحوا إلى أواسط آسيا الصغرى، من المناطق الشمالية الواقعة على سواحل البحر الأسود^(٢).

وكرثت المصادر المدونة عن الحيتيين وعلى رأسها الملكية التي عثر عليها في "بوغاز كوى" سنة ١٩٠٦، كما تم التعرف على الكثير من النصوص التاريخية التي أعيد إستنساخها في قرون أحدث، ومن بينها قرار "الملك تيليبيش" الذي كانت مقدمته التي شرح بها إستقرار الحكومة زمن الملوك الأسبقين والفوضى في الأزمان اللاحقة خير عرض للتاريخ الحيتي حتى وقت كتابة النص^(٣). ويضاف إلى هذا الآثار المادية من مواقع عدة أمثال "كول تبة" و"حاتتوشاش" (بوغاز كوى) وأنكو Ankuwa (على شار).

وخلال وقت الحيتيين كانت في بلاد الأناضول لغات عديدة، فإلى جانب الحيتية كانت هناك اللغة الأكادية التي كانت لغة المراسلات والعلاقات الدولية. ثم اللغة الحاتية والبالية والخورية. وقد دون اللوفيون لغتهم في الخط الهيروغليفية الحيتي منذ عصر المملكة الحيتية القديمة، وهي اللغة التي دون بها الملوك الحيتيين من العصر الحيتي المتأخر (الجديد) كتاباتهم الضخمة بها. وتظهر اللغة الحيتية الكثير من المفردات الموجودة في لغات هندية-أوروبية أخرى، وكانت اللغة البالية لغة إقليم "بالا" (منطقة بافلاكونيا) في العصور الكلاسيكية وهي "كاستومونو" الحالية وهناك من يضعها عند "سباسطية" (سيواس) أو في

(١) رمضان عبده علي: تاريخ الشرق الأدنى القديم وحضاراته منذ فجر التاريخ حتى مجيء حملة الإسكندر الأكبر، الجزء الثاني الأناضول-بلاد

الشام، القاهرة ٢٠٠٢، ص ٧٥.

(٢) رمضان عبده علي: المرجع السابق، ص ٥.

(٣) سامي سعيد أحمد ورضا جواد الهاشمي: تاريخ الشرق الأدنى القديم إيران والأناضول، وزارة التعليم العالي، بغداد، ص ٢٤١.

الشمال الشرقي (قرب باي بورت)، ثم اللغة الحورية وقد تكلمها الحوريون الذين كانوا في بدء تأسيس المملكة الحيثية القديمة في منطقة الجبال الشرقية ثم تحركوا نحو الجنوب إلى المناطق التي سكنها اللوفيون من قبل^(٤).

وكان بأسيا الصغرى في نهاية عصر المستعمرة الاشورية ملوك "كوششارا" (كوسسار) ومنهم "بيتخانا" وولده "انيتاس" (انيتا) الذين سيطروا على القسم الأعظم من هضبة "كبادوكية". والعثور على خنجر "لانيتا" في بناية ضخمة في "كانيش" قد يكون هو نفسه قصر "انيتا" لأننا نعرف أن "كانيش" (نيسا) قد ضمها "بيتخانا" إليه مهم للغاية لأنه قد يدل على تخريبه لهذه المدينة. وقد أخبرنا انيتا أنه قد خرب "حاتتوشاش" (بوغاز كوى العاصمة الحيثية) وأعلنها ملعونة. وفعلا أظهرت الحفائر الأثرية بأن الطبقة الرابعة من "بوغاز كوى" والمسمى بموقع "بوبوك" قلعة- والذي عاصر المستعمرة الأشورية في "كول تبه"- قد خربت وأعقب هذا التخريب فترة هجرت المدينة. وقد سكنت المدينة مرة ثانية في الطبقة الرابعة والتي تكشف فترة ازدهار ترجع إلى المملكة الحيثية القديمة. وأخبرنا "أنيتا" في نصه (الذي هو نسخة متأخرة دونت المسماة وربما كانت نسخته الأصلية مكتوبة بالهيروغليفية الحيثية لم تصلنا بعد) عن صراعه وصراع والده للحصول على السلطة ضد المدن المنافسة لهما وهي "نيسا" (نيسا) "وزالبوا" و"بوروشخا ندا" و"ساللا تيوارا" و"حاتتوشاش"، وكيف أخضعا هذه المدن. وقد نقل "انيتا" عاصمته بعد ذلك إلى "نيسا". وفي الغالب إن أعمال المستعمرة الأشورية في كانيش قد توقفت في عهد "انيتا". وهناك من الأدلة ما حمل البعض إلى الإستنتاج بأن التجار الأشوريين في موقع "على شار"- التي ربما هي نفسها "كوششار" أو "كسسورا"- لم يجدوا أي أذى بل تركوا ديارهم من تلقاء أنفسهم وبصورة سلمية وسلموا المكان إلى الحيثيين ومن أن ثورة لا بد وأن حدثت لمصلحة الحيثيين الذين سيطروا على هذه المدينة، وإندفعوا منها لغزو "كانيش" ومن ثم استوطنوا موقع "حاتتوشاش" الذي كان مهجورا آنذاك. ولذلك فمن الصعب القول بأن المملكة الحيثية هي استمرار مباشر لمملكة "بيتخانا" و"انيتا". وأن سلالة جديدة قد أخذت الحكم من سلالة "انيتا" بطرّف لا نعرفها الآن وبها ابتدأت المملكة القديمة الحيثية منذ سنة ١٦٥٠ ق.م.

ووسط هذا بقى الحيثيون أقلية في الأناضول ولم يظهر السكان المحليون قبل حلول الحيثيين وتسلبهم في الأناضول أية جدارة في الحقل السياسي بل ظلوا يحكمون بدويلات محلية منفصلة. وليس هناك أي دليل بأن الحيثيين قد غيروا هذا النظام في البداية. فالحيثيون لم يمتاحوا بلاد الأناضول في هجرة جماعية واحدة بل تغلغلوا تدريجيا وحصلوا في البداية على شيء من النفوذ في بعض الدويلات. وتذكر بعض وثائق المستعمرة الاشورية في "كانيش" حكاما محليين تعترف بهم الأخبار الحيثية وأحد وثائق المستعمرة الاشورية هذه مدونا باللغة الحيثية^(٥).

(٤) سامي سعيد أحمد ورضا جواد الهاشمي: المرجع السابق، ص ٢٤١-٢٤٢.

وانظر الوضع التاريخي واللغوي وتسمية الحيثيين واللغات المعاصرة:

Albrecht Goetze: The Cultures of Early Anatolia, Proceedings of the American Philosophical Society, Vol. 97, No. 2 (Apr. 30, 1953), pp. 214- 221.

(٥) سامي سعيد أحمد ورضا جواد الهاشمي: المرجع السابق، ص ٢٤١-٢٤٣.

٢- الحاتين واصل والحيتين:

ويتفق الكثير من الباحثين على أن الموطن الأصلي للحيتون هو بلاد القفقاس. ويشير الدليل اللغوي بأن هجراتهم لم تتم في وقت واحد بل استغرقت وقتاً طويلاً وتدرجياً وإن اشتركت به الكثير من القبائل الحثية. وهناك من يعتقد أن الحيتين قد قدموا من منطقة ما وراء البحر الأسود والتي تشمل ضمنها القفقاس أيضاً. ويضع آخر احتمال هجرتهم من المنطقة الأيبجية عبر الهلسبونت والبوسفور دون أن ينفي احتمال هجرتهم من بلاد القفقاس. واعتبر البعض أصحاب قبور "الاجاهويوك" و"حروزتية" و"كايابينارهيوك" في سهل "توكات-اماسيا" الخصب من "الحاتين"، وحتى ذهب آخرون إستناداً إلى وجود النصب في مقابر "الاجاهويوك" إلى إفترض أصل شمالي هؤلاء الحاتين يرجع لمنطقة "القفقاس"، وإفترضوا الأصل المشترك للوعائين الفخاريين الصغيرين المصنوعين باليد والمزينين والذين عثر عليهما من مقبرة "الاجاهويوك" وفخار "خربة الكرك" في فلسطين المماثل لهما والذي يمكن تتبع دخوله إلى الموقع الأخير بطريق "راس شمرة" و"طبارة الأكراد" و"الالاخ"... إلخ في جنوب بلاد القفقاس. وربط البعض مقابر موقع "الاجاهويوك" مع الحاتين وذكروا وصولهم في إنذفاعهم -حتى سوريا- فلسطين كبدية لهجرة "للحاتين" هؤلاء من القفقاس جنوباً طاعين على هذه المنطقة التي تمتد من آسيا الصغرى حتى سوريا- فلسطين. وبذلك يروا أن الحيتين الذين يذكرهم العهد القديم زمن الأباء إبراهيم الخليل وأولاده وأحفاده ليسوا من الحيتين الذين دخلوا فلسطين أيام الإمبراطورية الحثية بل من المهاجرين الحاتين الأوائل^(٦).

ولم تستمر حضارة الحاتين إلى العصر التالي بآسيا الصغرى ولكن تأثيرهم ظل مستمراً في حضارة البلاد إلى جانب إظهارها تأثيرات خارجية مما يدل على علاقات لهم مع جيرانهم. فبعض آثار مقبرة "الاجاهويوك" تماثل نظيراتها لها من عصر فجر السلالات في العراق من زمن أسبق وكذلك مع أدوات من مدينة الطبقة الثانية لطرواده وبعض الأسلحة لها ما يماثلها في شمال سوريا وقبرص. وقد وردنا إسم الحاتين من المصادر الحثية ونعرف أن بلاد الأناضول قد سميت بهم منذ الربع الأخير من الألف الثالث ق.م. فكانت "بلاد حاتتي" وظلت تعرف بهذا الاسم حتى قرون متأخرة. وقد سميت لغتهم أيضاً "بالنيسية" ويمكن أن نتعرف على لغتهم من الكثير من الكلمات والعبارات القصيرة التي وردت منها في النصوص الحثية، فقد استعملت هذه اللغة والتي سميت أيضاً باللغة شبه الحثية (المقابل الحثية) من قبل الكهنة في طقوس بعض الأرباب منهم آلهة عظام في مجمع الأرباب الحثي. ولكن هذه العبارات غير كافية لأن تعطينا صورة كاملة عن اللغة الحاتية سواء من ناحية البنية أو المفردات. وعلى أي الأحوال فيظهر تأثير الحضارات الحاتية في الطقوس الدينية الرسمية والأساطير الحثية. وكما يدل الاسم فإن العاصمة الحثية نفسها "حاتتو شاش" كانت بالأصل مستقراً "حاتتيا" وإن العناصر الحاتية الكثيرة الواضحة في الحضارة الحثية تدل على مدى التقدم الفكري الذي كان عليه الحاتيون^(٧).

وعرفت كذلك جماعة أخرى تعرف باللوفيين قد دخلوا بلاد الأناضول من الغرب في نهاية العصر البرونزي الأولي واضعين نهاية لحضارة أقدم في البلاد، وقد سكن اللوفيون خلال هذا العصر والذي تلاه في الأقسام الجنوبية من شبه جزيرة الأناضول^(٨).

(٦) سامي سعيد أحمد ورضا جواد الهاشمي: المرجع السابق، ص ٢٢٧ و ٢٣٩.

(٧) سامي سعيد أحمد ورضا جواد الهاشمي: المرجع السابق، ص ٢٢٧ - ٢٢٨.

(٨) سامي سعيد أحمد ورضا جواد الهاشمي: المرجع السابق، ص ٢٢٨.

٣- أهمية فخار الألفين الثالث والثاني ق.م في دراسة أصول وهجرات الحيثيين:

وإذاء هذه الصعوبة يتضح أنه من المهم الإهتمام بالفخار الذي عثر عليه في المناطق المذكورة لكونه يعتبر مصدر آخر مهم للتعرف على جوانب التشابه والتحرك والإتصالات بالنسبة البدايات الأولى للحيثيين وهجراتهم نظرا لما للفخار من أهمية كبيرة كمصدر مهم للتأريخ لحضارات القديمة بصفة عامة ولحضارات الشرق الأدنى القديم بصفة خاصة، وحيث أنه منذ عام ١٩٨٨م فقد قمت بتدريس هذه العلم لطلاب الدراسات العليا بالمعهد، ونشرت عددا من البحوث عن جوانب على الفخار المختلفة.

وتناولت من بين موضوعاته أهميته في التأريخ لجوانب الحضارة السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية والدينية والفنية واللغات والعلاقات بين الحضارات ومؤثراتها وتفاعلاتها... إلخ، حتى أصبح يشغلني دائما البحث في قراءة صفحات مفقودة في حضارات الشرق الأدنى القديم اعتمادا على الفخار. وهذه الأهمية تشمل التعرف على أصل الشعوب هجراتهم، ومن بين هذه الجوانب ما يمكن الإستفادة به في دراسات الفخار للتعرف على الشعوب التي عاشت في هضبة الناضول وإمتدادها إلى شمال الرافدين وسوريا.

وهذه الأهمية تتضح مما يراه "وولي" من أن وثائق الحيثيين أنفسهم تذكر هجرتهم إلى بلاد الأناضول من الجنوب. ويتفق "هوبه" مع الباحثين حول أن الوثائق الحيثية لا تنوه بشئ عن أصلهم، إلا أن الفخار هو الدليل في هذا الاتجاه. وجعل علماء آخرون ومنهم وولي مقابر "الاجاهوبوك" بشيرا بوصول الحيثيين الذين قدموا من منطقة القفقاس وذهبوا إلى سوريا وفلسطين ومنها دخلوا بلاد الأناضول. فهناك حضارة أغادير في منطقة القفقاس والتي بدأت هناك منذ العصر الحجري الحديث حتى الحجري المعدني وصار لهم في الألف الرابع ق.م فخار أسود اللون مصقولا مزينا بناذج منحوتة ومرسومة، وبنوا مواقع طينية على شكل حذوة الحصان زينوها بالأشكال والرؤوس البشرية^(٩). وكان من بين ما عثر عليه في حفائر الجمعية التاريخية التركية التي أجرتها منذ عام ١٩٣٥ بين الطبقات العديدة في "الاجاهوبوك" فخار حيثي مصنوع باليد ما عدا بعض اللعب الصغيرة دقيقة الصنع وغير سميك وعليه ألوان بين الرمادي والأسود^(١٠).

وعثر في هذه الحفائر على أواني تعبر عن الطابع أو الطراز الحيثي عليها علامات بارزة أو محفورة بعضها علامات هيروغليفية وهي عبارة عن أطباق مسطحة وأباريق بقاعدة مستديرة وأباريق بأرجل وأكواب بمصب يشبه منقار الطيور وأباريق لها مقابض أو بدون مقابض، وهي أواني تحمل تنوع وتعبر عن روعة في تصنيعها على الرغم من بساطتها. انظر اللوحة ١^(١١):

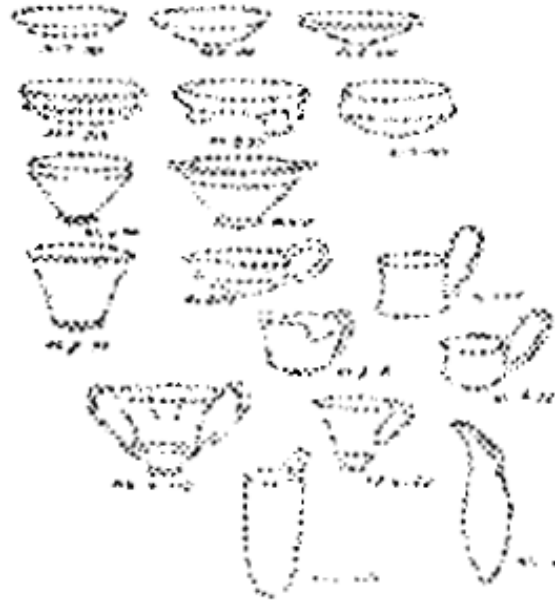
(٩) انظر: سامي سعيد أحمد ورضا جواد الهاشمي: المرجع السابق، ص ٢٣٩ - ٢٤٠.

(١٠) انظر عن حفائر الاجاهوبوك وطبقة الحيثيين فيها:

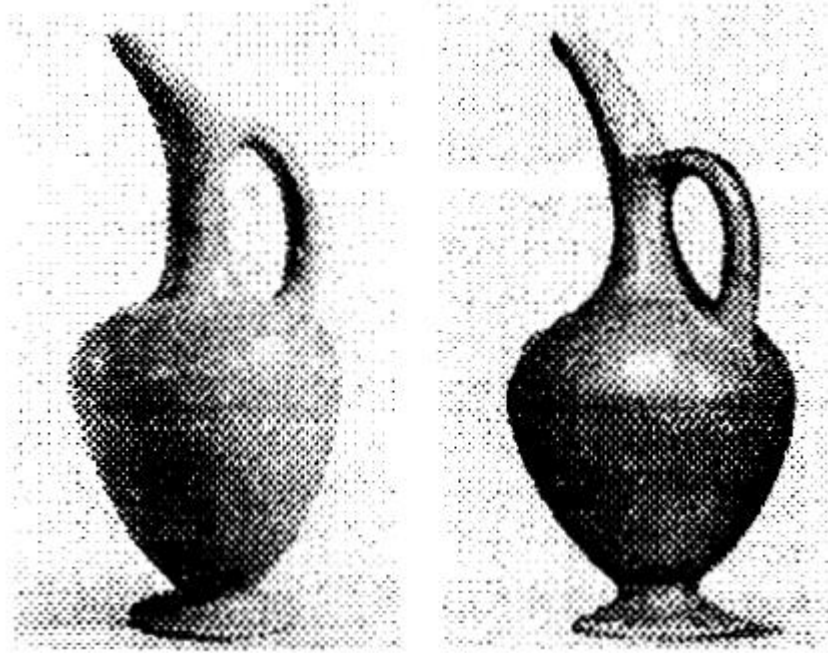
Hamit Z, Kosay, Mahmut Akok: The Pottery of Alaca Hoyuk, American Journal of Archaeology, Vol. 51, No. 2 (Apr, -Jun., 1947), p. 155.

(١١) انظر عن جانب آخر من حفائر الاجاهوبوك وطبقة الحيثيين فيها:

Hamit Z. Kosay, Mahmut Akok: op. cit, p. 156.



وكان من بين ما عثر عليه إناء برتقالي يعود إلى نهاية العصر البرونزي (للقرون السابع عشر ق.م)، اللوحة ٢^(١٢):



وقد هجرت مواقع هذه الحضارة في وقت بالعصر الحجري المعدني. وفي ذات الوقت كانت في سهل عمق في حوض نهر العاص الأوسط مستقرات سكان استعملوا الفخار الأسود المصقول ونفس نوع مواقد اغدير. والتي حلت محل أخرى لسكان محليين كانوا يستعملون نوعا محليا من الفخار. وفي أواخر العهد البرونزي الأوسط ظهر نفس نوع الفخار في سورية- فلسطين وأواسط بلاد الأناضول فوق أطلال البيوت المحروقة للسكان القدامى. وكان من بين البقايا التي عثر عليها بعض الشقف من هذا النوع من الفخار ومنها وعاء كامل في مقبرة "الاجاهيويوك". كما عثر على نوع مشابه إلى

^(١٢) انظر عن هذا الابريق من حفائر الاجاهيويوك وطبقة الحثيين فيها:

Elsie Holmes Peck: RECENT ACQUISITIONS OF ANCIENT NEAR EASTERN POTTERY, Bulletin of the Detriot Institute of Arts, Vol. 54. No. 3 (1976), p. 139.

مواقع "اغدير" في "كول تبة" من بداية العصر البرونزي الأولي. وهو ما يوضح أن الحثيين قد خرجوا من بلاد القفقاس وإندفنوا جنوبا حتى وصلوا سهل عمق حيث بقوا هناك مدة من الزمن، ولما خرجوا منها بالقوة، ذهب بعضهم جنوبا إلى فلسطين، بينما صعد آخرون باتجاه الشمال إلى بلاد الأناضول، وبالتدرج قضاوا على معارضيتهم وأسسوا أخيرا الدولة الحثية. ومع هذه التحركات إلا أنه ظل الكثير منهم في سهل عمق، وهو ما يعلل سبب وجود جماعة تؤيد الحثيين إلى عصور متأخرة في منطقة "كركميش" كانت تقف في وجه مؤيدي المصريين وتعارض سياسة دول شمال سورية المناهضة للحثيين.

ويرى البعض أن أوائل آثار وجود الحثيين قد ظهرت في موقع "كول تبة" (كانيش)، وظهر في المزيادات إلى نهاية الألفاظ في أسماء السكان المحليين في الكتابات التي تم التعرف عليها في هذا الموقع أمثال "الا" "Ili" و"اولا" "Ula" وهي تحويلات حثية إلى المزيادات الحثية ال، ايل واول. وظهر أخيرا بأن "كانيش" هي نفسها "نيسا". ولما كان الحثيون قد أطلقوا على لغتهم الاسم النيسية فإن نيسا "كول تبة" كانت في الغالب عاصمتهم. وحيث ظهر فيها الأوعية التي انتشرت فيها والتي تعود للفترة التي سبقت ظهور الحثيين، وهو فخار مصنوع باليد وكثير الألوان ومزين بالمواضيع الهندسية بألوان الأبيض والأحمر أو الأسود، وهي مواضيع تظهر أيضا في التماثيل الشبيهة بالأقراص من هذا الموقع. وهذا الفخار "الما قبل الحثي" قد اشتهر خلال المملكة القديمة الحثية منذ سنة ١٦٥٠ ق.م، وقد حل معه فخار آخر قاموا بتطويره بصورة تدريجية ولكن فخارهم القديم ظل في الاستعمال. ويرى البعض أن الفخار الكثير الألوان هذا مع الحثيين، ويربطون بدء ظهور هذا الفخار الأولى بمجيئ الحثيين الأول في الطبقة الثالثة من موقع "على شار" (١٣).

خاتمة

وبناء على ما تقدم يتضح أن حضارة الحثيين التي ولدتها هجراتها وتحركاتها حوالي ٢٠٠٠ ق.م قد تركت تراث وآثر في تاريخ الشرق الأدنى القديم ولتأثر بأحداث الحضارات القديمة في هذه المنطقة (١٤)، فكانت هجراتها التي انطلقت من بلاد الأناضول إلى هذه المناطق التي دلت عليها آثارهم ومن بينها الفخار، وقد هجراتهم أظهرت الحثيين كأحد المجموعات الفتية من بين القوى الجديدة التي تمكنت من أن تقبض على علم القيادة في الشرق، الأولى كانت الهجرات التي اتجهت نحو الغرب حتى وصلت إلى آسيا الصغرى واستقروا على مسرح التاريخ باسم الحثيين، والذين سعوا لتحقيق طموحاتهم في التوسع في سورية مع شمال بلاد النهرين وفي هضبة الأناضول، وكان لهم مع مصر القديمة جولات من العلاقات وحاولات إثبات الندية أو التخطيط ضدها. وبنفس القدر كان من هذه المجموعات الفتية الجديدة الفلول التي انطلقت في هجراتها منذ بداية الألف الثاني قبل الميلاد شملت مملكتهم الأناضول وجزءا كبيرا من شمال العراق وسوريا وكان مركزهم في مكان بوغاز كوى الحالية وهي على بعد ١٤٤ كم شمال أنقرة. ثم كانت تجمعاتهم وهجرتهم البطيئة متجهة نحو الجنوب مختزقة سوريا وفلسطين، حتى كانت وجهتهم إلى مصر وفيها عرفوا بالهكسوس، الذين سيطروا على منتصفها الشمالي، وتمكنوا من تأسيس الأسرة الخامسة عشرة حوالي ١٦٥٠ ق.م مستغلين ما حل بمصر من ضعف واضمحلال، والذين بقوا فيها حتى كانت نهاية الأسرة السادسة عشرة وتم طردهم عام ١٥٥٠ ق.م (١٥).

(١٣) سامي سعيد أحمد ورضا جواد الهاشمي: المرجع السابق، ص ٢٣٩ - ٢٤١.

(١٤) انظر عن هذا الابريق من حفائر الاجاهيويوك وطبقة الحثيين فيها:

HamiT Z. Kosay: A Contribution to Central- Anatolian Prehistoric Ceraics, Artibus Asiae, Vol. 10, No. 1 (1947), pp. 36.

(١٥) انظر: عبد المنعم أبو بكر، الهكسوس، الموسوعة المصرية: تاريخ مصر القديمة وآثارها، المجلد الأول - الجزء الثاني، القاهرة ١٩٧٣، ص ٣٨ - ٤٢.

Beckearth (J.v.): Handbuch der agyptischen Konigsnanem, MAS 20 (1984), ss. 77- 80, 161. 216- 217..